﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

في الآيات السّابقة محاورةٌ بينَ مريم وقومها، وقد أحالتهم إلى رضيعها ليُجيبَ عنها، وفي هذه الآية وما بَعْدها جوابُ عيسى عليه السلام عن أُمِّه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: (كتب) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جَمعِ شَيْءٍ إلَى شَيْءٍ، مِنْ ذَلِكَ الكِتابُ والكِتابَةُ، يُقالُ: كَتَبْتُ الكِتابَ أَكْتُبُهُ كَتْبًا، والكِتابُ: الشَّريعَةُ الَّتي مِنْ شَأْنِها أَنْ تُكْتَبَ؛ لئَلّا يَقَعَ فيها تَغْييرٌ[1]، والكِتابُ: القُرْآنُ وغيرُه مِنَ الكتب السَّماويّة[2]، والمُرادُ به في الآيةِ: الإنْجيلُ، وهو ما كُتِبَ مِنَ الوَحْيِ الَّذي خاطَبَ اللّه به عيسَى عليه السلام، ويَجوزُ أَنْ يُرادَ به: التَّوْراةُ، فيَكونَ الإيتاءُ إيتاءَ عِلْمِ ما في التَّوْراةِ، كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مَرْيَم: 12][3].

2) ﴿وَجَعَلَنِي﴾: أصلُ (جعل) كلمات غير مُنقاسة، لا يُشبه بَعضها بعضًا، فالجَعْلُ: النَّخل يَفوتُ اليَدَ، والواحِدَةُ جَعْلَةٌ[4]، والجُعْلُ والجَعالَةُ والجَعيلَةُ: ما يُجعل للإنسان على الأمر يفعله، وجَعلتُ الشَّيء صنعتُه[5]، ولفظ (جَعل): عامٌّ في الأفعال كُلّها، وهو أعمُّ مِن فعل، وصَنَعَ، وسائِرِ أخواتها، ويأتي لمعانٍ منها: جَعل الشَّيْءَ جَعلًا: وضَعَهُ وقَدَّره، وجَعل بَعْضَه فوقَ بعضٍ: أَلْقاهُ، وجَعل القَبيحَ حَسَنًا: صَيَّرَهُ، وجَعل البَصْرَةَ بَغْدادَ: ظَنَّها إيّاها، وجَعل لَهُ كَذا علَى كَذا: شارَطَهُ به علَيه[6]، والمقصود بالجعل في الآية: التَّهْيِئَةُ، والتَّمكينُ، والوَضْعُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 98.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والفيروزابادي، القاموس المحيط، والزّبيديّ، تاج العروس: (كتب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 98.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جعل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 385.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكن).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لقد أنطَقَ الحَقُّ تعالى عيسَى وهو صبيٌّ في المَهدِ، فقال: إنّي عبدُ اللّهِ؛ فهو الذي يستَحِقُّ العبادةَ وحْدَه، لا شَريكَ له، مع أنَّ الذي اشتَدَّت الحاجةُ إليه في ذلك الوَقتِ إنَّما هو نفيُ تُهمةِ الزِّنى عن مَريمَ عليها السلام، إلّا أنَّ عيسى عليه السلام لم يَنُصَّ على ذلك، وإنَّما نَصَّ على إثباتِ عُبوديَّةِ نَفسِه، كأنَّه جَعَل إزالةَ التُّهمةِ عنِ اللّه تعالى أَولى مِن إزالةِ التُّهمةِ عنِ الأمِّ؛ فلهذا أوَّلَ ما تكَلَّمَ إنَّما تكَلَّمَ بها، لقد قضى اللّهُ وقَدَّرَ مِن قبلُ أنَّه سيُؤتيني الإنجيلَ، وسيَجعَلُني نَبيًّا[1].

النَّصُّ على إثباتِ العُبوديَّةِ أَولى مِن إزالةِ التُّهمةِ عنِ الأُمِّ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف:

قوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ اسْتِئْنافٌ مَبْنيٌّ عَلى سُؤالٍ نَشَأ مِن سياقِ النَّظْمِ الكَريمِ، كَأَنَّهُ قيلَ: فماذا كانَ بَعْدَ ذَلِكَ؟ فقيلَ: قالَ عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾[2]؛ لذا فُصِل كما يُفْصَل الجوابُ عنِ السُّؤال، وهذا الفصل هو شِبْه كمالِ الاتِّصال.

الفَصْل لشِبْه كمال الاتِّصال

غرض التَّعبير بمقول القول جملةً اسميّةً مُؤكّدة:

التّأكيد بالجملة الاسميَّة ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ مراعاةً لحال المخاطَبين المُنْكِرين، فالقوم أنكروا على مريمَ ما جاءتهم به، وتعجَّبوا مِن إحالتهم إلى رضيعها، كما أنَّ اللّه تعالى أعلم عيسى عليه السلام بأنَّ أقوامًا مِن ملَّته سَيَنْسِبونه إلى الأُلوهيَّة، أو البُنوَّة إلى اللّه تعالى، فأنطقَه اللّهُ بما يُؤَكِّد بشريّتَه، وتَبَرُّؤَهُ مِن ادِّعاءات الفِرَق الضّالّة فيه.

التَّأكيد مراعاةً لحال المخاطَب

سِرُّ عدم نَصّ عيسى عليه السلام على نَفْي التُّهْمة عن أُمّه أوّلًا:

ممّا لا شكَّ فيه أنَّ اللّه أنطق عيسى عليه السلام وهو رضيع في المهد؛

صوت الحقّ يبدّد ظلام الإنكار

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 529، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 535، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 103، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 258.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 581.

ليُبَرِّئَ أُمَّه من تُهْمَة الزِّنى التي رماها بها اليهودُ - شاهت وجوهُهم -؛ لذا فقد كان مِنَ المتبادر أن يكون أولَّ ما ينطق به نَفْي التُّهْمةِ عن أُمِّه، وإنّما النفي متحقّقٌ بالتأسيس على سريان المعجزة بإبطال الدهشة بدهشة أعظم منها، بأنَّه تعالى لا يَخُصُّ أُمًّا بولد موصوفٍ بالنُّبوّة وبأَجَلِّ الصِّفات الحميدة إلّا إذا كانت مصطفاةً مبرَّأةً مِن كُلّ عَيْب.

سِرُّ حذفِ النّون في ﴿إِنِّي﴾:

مِن شأن المُصطفَين كمالُ غيْرتِهم على التّوحيد

أصلُ قوله: ﴿إِنِّي﴾ (إنّني)؛ وإنّما حُذفت إحدى النّونيْن؛ للدّلالة على إقبال عيسى على قومه - يكلمهم بما ذُكِر في الآية - إقبالًا سريعًا؛ فكلامُه حين أشارت إليه أُمّه مريم معجزة، وسُرعةُ استجابته منها بسبيلٍ، فهي تمكين لها، ويجوزُ أن تكون النّونُ المحذوفةُ نونَ: (إنَّ)؛ للدّلالة على أنّ مضمون الجملة لا يحتاج إلى توكيد في الأصل؛ فأماراتُ الأُلوهيّة منتفيةٌ عنه تمامًا، وإنّما الظّاهرُ فيه وعليه علاماتُ المخلوقيّة، وعلاماتُ الاصطفاءِ؛ فهو مخلوقٌ للّه، مُختار مِن قِبَله؛ ليكون نبيًّا ورسولًا، وقامت النّون المُثبتة بتأكيدِ معنى الكلام في نفوس القوم؛ لأنّ بهم إنكارًا يفتقر إلى أن يواجَه بهذا التّوكيد.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿ءَاتَىٰنِيَ﴾:

قدَّر اللهُ في عِلْمه الأزَليّ إيتاءَ عيسى الإنجيلَ

قوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: حَكَمَ لي بإيتاء الكِتاب والنُّبوّة فيما قضى وسبق، وفي التَّعبير بالماضي إخبارٌ عمّا سَبَق له، مَمّا هو كائن فيما بَعْد، أي: أنَّ اللّه تعالى قَدَّر في عِلْمه الأزَليّ إيتاءَ عيسى عليه السلام الإنجيل[1].

سِرُّ التَّعبير بالمفعول به ضميرَ تكلُّم ﴿ءَاتَىٰنِيَ﴾:

في التَّعبير بالمفعول به ضميرَ تَكَلُّم ﴿ءَاتَىٰنِيَ﴾ تأكيدٌ على تخصيصه بهذا الإيتاء، والنَّص عليه هو دون غيره.

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 14/ 242.

دلالة العطف والتَّنكير في ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾:

عيسى عليه السلام يُعَدِّد فضائل الله تعالى عليه

دلَّ العطف في ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ على تعديد فضائل الله تعالى وإنعامه عليه، وهذا ما يقال أيضًا في العطف في قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، والمعنى: وجعلني مِن جملة الأنبياء، والتَّنكير في ﴿نَبِيًّا﴾ للتَّعظيم، فمِمّا هو معلوم أنَّ النُّبوَّة مَرْتَبةٌ عظيمة لا ينالها إلّا مَن اصطفاه اللّهُ تعالى مِن خَلقه، وقولُه: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ معطوف على قوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والمعطوفُ على الحال حالٌ؛ فهو مِن وجوه اصطفائِه وتمييزِه، وتقديمُ: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ على ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ أبلغُ في بيان الاصطفاء؛ ببيان أَهْلِيَّتِه العَلِيَّةِ لتلقِّي الكتاب، وجملةُ: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تتضمنها جملة: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»